جنكيز خان

سفاح الشعوب .. ذو اللحية الحمراء !

مما لا شك فيه أن حكم الطغاة ثمرة تاريخية لغفلة الشعوب وعدم إدراكها لحقوقها وسوء فهمها لتطلعاتها وعجز قدراتها عن تحقيق أهدافها . ولكن أحداث التاريخ لا تجرى دائمًا بما يشتهى المتآمرون ، وليس فى علم التاريخ شىء اسمه المصادفة إذ لكل حدث أسبابه كما أن لكل معلول علة ، والقوى ليس قوى بنفسه وإنما هو قوى بضعف الآخرين ، أن الجبل لا يمكن أن يكون جبلاً إلا إذا كان هناك سفحًا .

وكتب التاريخ تحفل بالوقائع الدامية خلال حكم الطغاة ومن يريد أن يستطلع فظائع هذا الحكم عليه أن يقلب صفحات هذه الكتب ليجد أرقامًا لا تحصى من الضحايا والدماء لا يمكن أن توزن أريقت لأبرياء من رجال ونساء وأطفال ، وجنكيز خان إحدى الشخصيات التاريخية الرهيبة التى تركت بصماتها فى شكل حمامًا من الدم وجماجم من الضحايا وفاقت الشيطان فى أضرارها البشرية ، إنها شخصية جنكيز خان المغولى ، خاقان آسيا وأوربا وسيد السحاب وكبير الأباطرة المغول الرجل الذى ولد وفى قبضته قطعة متجمدة

من الدم ، والذى صرع أخاه عندما أخذ منه سمكة وقتل عمه عندما شعر أنه سينافسه فى حكم البلاد ، رغم أن هذا العم كان له الفضل فى حمايته ودرء أعدائه عنه .

وبادئ ذى بدء نسأل أنفسنا سؤالاً ، من هم المغول ؟ وما معناها اللغوى ؟ يرى البعض أن المغول كلمة مشتقة من لفظ محلى معناه الشجاع ، على حين يرى البعض الآخر أنها مشتقة من اسم زعيم ظهر فى صحراء جوبى – موطن المغول الأصلى فى شمال الصين – ظهر بين قبائل المغول ولقد كانت الطبيعة هى المعلم الأول للمغول ، حيث كانوا قبائل من الفرسان المترحلين يعيش أفرادها فى خيام ويعتمدون فى طعامهم بوجه رئيسى على لبن الخيول ولحومها وكانوا يمارسون الرعى والصيد ، وابتدأ تدربهم على الشئون العسكرية بثورة على حكامهم فى إمبراطورية « الكن » التى كانت عاصمتها بكين وهى إمبراطورية صينية كانت فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وتعلم المغول من الصينيين الشىء الكثير حتى وصلوا إلى درجة من التفوق العسكرى لم يسبقهم إليها أحد ، وكان للمؤرخين عدة آراء حول أساطير وخرافات المغول والإبهام الذى أحاط بنشأتهم وبظهورهم على مسرح التاريخ مما كان سببًا فى الغموض والإبهام الذى أحاط بجبروتهم وطغيانهم ، ولعل أهم صفة التصقت أنهم أهل مكر وخداع ولهم باع طويل فى الخيانة والدهاء .

ظهور المغول :

لعل القوى السياسية التى عاصرت ظهور المغول واستطاعوا التغلب عليها هى التى سهلت مهمة هؤلاء البرابرة المتوحشين لأن التاريخ يعلمنا دائمًا أن سقوط الدول يبدأ من الفساد نتيجة الفوضى وللشقاق وللخيانة التى تتعرض لها هذه الدول ، ولولا أن جنكيز خان وجد حوله قوى سياسية مضعضعة ما استطاع النصر عليها قط ، وأهم هذه القوى السياسية التى نذكرها ويهمنا أمرها بصفة خاصة لأنها دمرت على يد المغول ، وعانت على أيديهم هى دولة « خوارزم » وهى دولة إسلامية كانت تشمل بلاد الترسكتان ، وشمال الهند وفارس ، وكان يحكم هذه الدولة أمراء من الأتراك وقد أمتد سلطانها إلى مساحة شاسعة بين نهر الكنج ونهر دجلة ولكن هذه الدولة كانت مهملة فى أواخر أيامها وكان الصراع بين حكامها على أشده وأصبحت عاصمتها «سمرقند» مقرًا للمؤامرات وحتى أشهر مدنها هى بخارى ، وخوقند لم تسلم من التمرد والثورة نتيجة لظلم الحكام ، ولعل أبدع وصف لحال حكام خوارزم يمكن أن يستقى مما كتبه جلال الدين السيوطى المؤرخ المعروف فى كتابه « تاريخ الخلفاء » حيث قال :

كان الخلفاء والملوك فى ذلك الوقت ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه ، مكب على مجلس أنسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا عن

له وصف الحرب لم يسأل إلا عن الهزيمة قد بلغ أمله من الرتبة وقنع بالسكة والخطبة ، أموال تنهب وممالك تذهب ، ولا يبالون بما سلبوا .

باختصار يمكن القول أن أعداء جنكيز خان الذين انتصر عليهم لم تكن تربط بينهم رابطة الألفة أو المحبة أو الانتماء لأنفسهم أو لأوطانهم وكان مبدأ التضحية بالنسبة لهم شكلاً لا عقيدة ولذا لم يلبثوا أن تفرقوا أمام المغول .

من هو جنكيز خان :

يعتبر جنكيز خان من أكبر الغزاة والبغاة الذين بنوا أمجادهم على جثة التاريخ ، ظهر كالإعصار العاصف وعذب البشرية ، وكأنه ينتقم لنفسه ولوالده ، وأحب سفك الدماء الذى قيل أنه كان يحلو له أن يشرب دماء ضحاياه ، ولعل نشأته والظروف التى أحاطت به تفسر لنا تلك القسوة التى اتصف بها ، وكثرة عدد الضحايا الذين سقطوا تحت أقدام جيشه وسيوف جنده والتى يقدرها بعض المؤرخين بأنها وصلت إلى نحو خمسين مليونًا من الأنفس ما بين قتيل وجريح وأسير خلال ربع قرن من الزمان لم تر البشرية أبشع منه على الإطلاق خلال تاريخها الطويل .

ولقد ولد جنكيز خان عام ١١٥٥م ، وهو ينحدر من سلالة ممتازة من المغول هى سلالة « البورشيكون » تلك السلالة التى

تقول قصص المغول وروايتهم أنها تنحدر من سلالة الآلة التى كانوا يعبدونها ، وكان جد جنكيز خان يطلق عليه « كابول خان العظيم » ولما مات هذا الجد تولى والد جنكيز خان زعامة القبيلة والتى كانت تعرف باسم « التمرجى » وكان هذا الأب يدعى « يسوجاى » الحكيم الداهية .. وكان يحلو له أن يتريض على شاطىء نهر « الآتون » حاملاً صقره على ذراعه وذات يوم رأى أحد أعدائه من قبيلة « الماركت » التى تنتمى إلى سلالة أهل « التندرا » الأشداء ومعه عروسه التى كانت تدعى « هولون » ، وكانت جميلة بشكل أطار صواب يسوجاى فاختطفها من عريسها وتزوجها ، وهذه العروس هى والدة جنكيز خان حيث لم يمض على زواجها تسعة شهور ، وكانت قد حملت بهذا المرعب الذى دوخ التاريخ بأفعاله وقيل إنه يوم مولد جنكيز خان انتصر والده على قبائل الماركت هذه بعد غزوة مفاجئة لمقرها وكان ضمن الأسرى زعيم « الماركت » الشجاع ، الذى ظل يقاوم حتى النهاية إلى درجة أعجبت « يسوجاى » ومن ثم عندما بلغ الأب نبأ ولادة ابنه أطلق عليه اسم الزعيم الذى أعجب بشجاعته وهذا الاسم كان « تيموجن » وفى لغة المغول تعنى هذه الكلمة الصلب المتين ، ولقد قيل إنه يوم خروجه من بطن أمه كانت يده تحمل بقطعة كبيرة من الدم المتجمد ، ولما فطمته أمه تغذى على ألبان الخيل والماشية ، وكانت الطبيعة قاسية عليه كما كان الإنسان أشد قسوة مما جعله فى خوف دائم وحذر شديد من كل من أحاطوا

به ، وبدأ يسمع منذ الصغر قصص الحرب وتعلم إجادة الصيد والاشتراك فى حلبات سباق الخيل والمصارعة وقذف السهام وكلف منذ الصغر بحراسة الخيل ورعى الماشية واستكشاف المراعى ، ثم أسندت إليه مهمة المشاركة مع غيره فى مراقبة الأفق من فوق التلال ليخطر القبيلة باحتمالات أى عدوان عليها مفاجئ من الأعداء وكان ذلك يعنى تحمل الآم الجوع والحرمان بضعة أيام والبقاء على حافة الجبل فى ليالى الشتاء القاسية وسط عواصف ثلجية عنيفة ولكن ذلك زاده صلابة وعلمه الصبر ، وقيل إنه كان أمهر رماة السهام بين المغول ولم يفقه فى هذا إلا أخاه الشقيق « كاسار » ، ولقد تميز جنكيز خان – كما هى صفات كل الطغاة – بالذكاء والخبث والمكر والدهاء واشتهر بين أقرانه برسم الخطط وانفرد من دونهم بفكرة رهيبة هى أن الحياة للقوى وحده والموت والاحتقار للضعيف ، لم يتعلم جنكيز خان فى مدرسة ولذا لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة ولكنه تعلم فى مدرسة الحياة ، . وكان جنكيز خان ذا عينين رماديتين تميل إلى الزرقة وجبهة عريضة وشعر أحمر مسترسلا جدائل طويلة وراء كتفيه ..

ولعل أول صدمات الحياة التى واجهت جنكيز خان وهو صغير هى موت جده مقتولاً بالسم حيث دس له السم إمبراطور الصين ثم مقتل أبيه غدرًا على يد بعض القبائل المعادية وكانت الصدمة الثالثة هى انتزاع الزعامة من أسرته وتخلى أتباع أبيه عنه حيث

أجمع زعماء القبيلة عقب مقتل أبيه وانتخبوا منهم زعيمًا جديدًا .. وأحس جنكيز خان بثقل الحياة وبدأ يرتعد من المستقبل الغامض ، الذى يحيط به وشعر بصيحات الثأر تردد فى عنف داخله وأحس بالكراهية لأولئك الذين تخلوا عنه بعد وفاة والده وتجىء الصدمة الخامسة عندما يشعر أن أخاه غير الشقيق « بايكتار » يطمع فيه فقام من شدة غضبه بقتله وهنا خاصمته أمه مما أثر على نفسيته تأثيرًا كبيرًا حيث قالت له عقب أن ارتكب جريمته :

« إنك وكاسار – تقصد أخاه الشقيق – كالكلاب الجائعة تنقض عل كل ما تلقاه ، والأفاعى تزدرد ما يقابلها حينا ، والذئاب تنهش ما تصادفه فى خلال العاصفة ، أما كان الأولى أن توجه السهام إلى صدور أعدائك » ، وكان خصام الأم الذى طال أكثر من سنة له دور كبير فى نزعات الشر التى شكلت شخصية جنكيز خان فيما بعد ، وتجىء الصدمة السادسة عندما يتمكن أعداؤه من الماركت من أسر زوجته التى كان قد تزوجها من قبيلة « أولوهواود » المغولية وكانت تتمتع بجمال فائق ..ذات وجه نضير ونهد بارز وقد مياس واسمها «يورتاى» ، أسرها أعداؤه وكأنهم يعيدون مسرحية خطف والد جنكيز خان لعروسه هولون أم السفاح ، وإن كان جنكيز خان قد استعاد زوجته فيما بعد إلا أن هذه الحادثة كان لها تأثير سيئ على أعدائه من قبائل الماركت والذين لم يسلموا من سيفه عندما ضحك له القدر وابتسم له الحظ

وتحالف معه ، أما الصدمة السابعة التى أثرت فى شخصيته فهى حصار عدوه اللدود « تارجوناى » زعيم قبيلة « التايدجوت » المغولية لأسرته فى الجبال وإجبار أفراد الأسرة على تسليمهم جنكيز خان أسيرًا نظير فك الحصار حيث قيدوه بالسلاسل ووضعوا فى رقبته نيرًا ثقيلاً وسجنوه ، ورغم نجاحه فى الهروب فيما بعد إلا أن قسوة أعدائه فى معاملتهم له جعلته يفقد معانى الرحمة فى معاملته للآخرين ولعل هذه الصدمات كلها قد قتلت روح الحياة داخل نفس جنكيز خان وجعلته يشعر بالأنانية المفرطة وأعطته مقاييس عدائية للتعامل مع البشر .

وابتسم الحظ لجنكيز خان بعد أن فر من الأسر وبدأ يجمع حوله بعض الأنصار وكان هربه أسطورة لدى قبيلته مما جعل الكثيرين من الشباب يسعون وراءه ، ورأى هو أن يتحالف مع عمه طوغرل خان حيث كون له جيشًا بلغ ثلاثة عشر ألف فارس أخذ يدربهم على فنون الحرب ويعلمهم أسرارها وشاعت أسطورة بين قبائل المغول تنبئ بخروج عاهل عظيم يوحدهم ويغزو بهم العالم ، وأخذ المنشدون فى كل مكان يتغنون بقرب ظهور هذا العاهل العظيم ، وقد غذى جنكيز خان هذه الأسطورة معلنا أن السر فى ضياع المغول وخضوعهم لغيرهم هو أنهم رُحَّل وأن المغول يمكن أن يسودوا العالم لو اتحدوا وأن القوة وحدها لها الغلبة بين البشر ، وبقواته المدربة دخل جنكيز خان أول معاركه ضد قبائل « التايدجوت » عرفت باسم

معركة المركبات لأنه أتخذ من العربات ستارًا للدفاع عن جيشه وجنوده ولم يكد ينتصف الليل حتى خرج منتصرًا حيث ألقى بزعيم القبيلة « تارجوتاى » وعدوه اللدود فى إناء من الزيت المغلى وقتل كل أسراه ولم تلبث قبائل المغول أن تقدمت عن خوف ورهبة لإعلانها الولاء له وبذا توحدت قبائل المغول كلها تحت قيادته ولما أحس بأنه فى غنى عن تأييد عمه طوغرل خان قام بقتله بلا رحمة وأصبحت كل صحراء جوبى فى قبضة يده وأعلن لمن حوله : « لقد علمنا كبارنا أن القلوب المتنافرة والعقول المختلفة لم تجمع فى جسد واحد غير أنى عازم على تحقيق هذه الغاية بعد فرض سلطاتى على كل من حولى » .

ومضى لتحقيق هذا الهدف تارة بالسياسة وتارة بالكياسة ومرة بالوعيد والتهديد وأخرى بالعهود والوعود وتلفت حوله لأبناء عمومته من التتار حيث دخل معهم فى تحالف ، وبذا تهيأت له الفرصة لتكوين جيش قوى شاعت حوله الخرافات بأنه جيش لا يقهر وأن الأبالسة تحارب معه وأن القسوة تجعل من الأفضل لأعدائه أن يستسلموا له وقد جاء فى وصف هذه الخرافات لجيش جنكيز خان : « أنهم يطعمون لحم البشر ولهم جماجم من نحاس وأسنان من صخر وقلوب من فولاذ ، تقذف أفواههم الحمم وتشرب خيلهم الندى ، لهم أجنحة كالطير » وقد اختلفت تقديرات المؤرخين حول عدد جنوده ، ولكنه بلا شك كان لا يقل عن المائة

ألف وبعد غزوة الصين زاد العدد إلى ما يقرب من ربع مليون جندى .

ليس من المبالغ فيه أن يطلق على جنكيز خان أنه السفاح الأعظم فى تاريخ الجنس البشرى لأنه كان يبيد المدن ويسويها بالأرض وينهب الثروة ويقتل الناس ويجز الرقاب معنويًا وماديًا وقد اعتمد على تشتيت عقلية خصمه بمفاجأته ومباغته وكان وحده يحصل على ثلث الغنائم فى البلاد المفتوحة ويترك الثلثين لقواده وجنوده حيازة كل ما يشتهون .

كانت إمبراطورية الصين هى أول قوة سياسية هرمة سقطت تحت أقدام جنكيز خان سنة ١٢١٤م ولم يمكث جنكيز خان فى قصور الصين ولا مدائنها التى فتحها بحد السيف ووطأتها سنابك خيله بعد أن قتل منهم ما يقرب من نصف مليون لكنه عاد إلى بلاده فى صحراء جوبى واتخذ من مدينة « قرة قورم » عاصمة له ورفع شعارًا لإمبراطوريته « إن فى السماء قوة الشمس أما على الأرض فقوة الخان » وحمل وهو فى سن الثامنة والأربعين لقب جنكيز خان ، أى مبعوث السماء وأصبح هذا الاسم يترجم إلى أنه « أعظم الحكام وإمبراطور البشر أجمعين » ، وانتخب من رعاياه سنة ١٢٠٦م (٦٠٣هـ) بلقب السيد الأعلى ورب القوة والبطولة ، ومقر عاصمته « قرة قورم » ومكانها – الآن – منغوليا .

وجاء الدور على إمبراطورية خوارزم الإسلامية ، وقد أرسل جنكيز خان بعض رسله إلى الإمبراطور خوارزم ، ولكن هذا بغباء قتل الرسل ، وصحيح أن جنكيز خان كان سيقوم بغزو خوارزم سواء وقعت هذه الحادثة أم لم تقع ، ولكنه بعد وقوعها إزداد مرارة واشتياقًا للانتقام الرهيب ، ولقد وصف مؤرخ معاصر ما حدث للمسلمين فى خوارزم على يد جنكيز خان وذلك المؤرخ هو ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » حيث قال : « من يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت أمى لم تلدنى وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا .. لقد شقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة وقتلوا النساء والرجال والأطفال . » وصورة الهجمة الشرسة للطاغية جنكيز على المدن الإسلامية هى أخطر ما قام به الطاغية المغولى فى حياته .

ولن يستطيع قلم أديب برومانسية أو فى شكل الدراما الإنسانية أن يصف ما حدث من قوات جنكيز خان للمدن الإسلامية فى دولة خوارزم ، كما أن ذكر التفاصيل تصيب النفس البشرية بالتقزز والغثيان وتجعل اللعنة تخرج من ألسنتنا لتنصب على قبر جنكيز خان .

لقد دمر المغول بقيادة جنكيز خان مدينتى : لاهور ، ومولتان تمامًا وسويتا بالأرض وتركوا كل شىء يبابًا خربًا ، وكان فتح « بخارى » يومًا أسود فارقت فيه الأمهات أولادهن والزوجات

بعولهن والعذارى آباءهن وأخذن جميعًا لمصير مجهول هو الخضوع لشهوات بهيمية من جند قساة لا تربطهم بالإنسانية رابطة ولا رب لهم إلا الشيطان ، وأحرقت المدينة بأكملها ، وقتل رجالها وترك الأطفال فى العراء مشردين طعامًا للذئاب والوعول ، وحملوا إلى صحن المسجد الكبير فى المدينة عدة صناديق تحوى نسخًا كثيرة من القرآن الكريم ، وداسوها بحوافر خيولهم واحضروا قرب الخمر والمغنيين إلى المسجد ، وأخذوا يشربون ويطربون وكبار رجال المدينة وعلماؤها — قبل أن يقتلوا — يمسكون بعنان الخيل إمعانًا فى إذلالهم وأتوا بعلف الخيول لإطعامها داخل المسجد ، وأمر جنكيز خان بعد ذلك بجمع سكان المدينة وخاطبهم قائلاً :

« إنى نقمة الله على الأرض ، ولابد أنكم تستحقون العقاب لأن الله ساقنى إليكم وهنا أدرك مسلمو بخارى بعد فوات الأوان أن الاخلال والفوضى الاجتماعية وعدم التمسك بشريعة الله هى سبب ضياعهم ، لأنه بلا شك يصدق قول « ومن أعمالكم سلط عليكم » ، ثم قام جنكيز خان بسلب أموال بخارى وكنوزها وطلب من أهلها مغادرة المدينة لا يحملون معهم إلا ثيابهم التى يلبسونها ، ويصف ابن الأثير سقوط بخارى قائلاً : « وكان يومًا عظيمًا من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق واقتسم المغول النساء ، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها » ، وحدث لسمرقند ما حدث لبخارى من نهب وسلب

وسبى النساء وقتلوا من لم يصلح للسبى منهن وفى مدينة نسا فى خراسان قتلوا من أهلها سبعين الفًا أما الرى فقد قتل المغول كل سكان المدينة بل وانقلبوا على بعض الموالين لهم الذين سهلوا لهم فتح المدينة والاستيلاء على قلاعها .

مدن الأحزان الإسلامية :

لقد كانت هناك مدنًا إسلامية خربت تمامًا ، وخربت عن آخرها ودمرت جمادها وحيوانها وإنساها على يد جبابرة التاريخ بقيادة لطاغية المغولى جنكيز خان عدو البشرية رقم واحد ، نذكر من هذه المدن مدينة « ترمذ » الإسلامية إحدى مدن دولة خوارزم ، حيث شق المغول بطون كل سكان المدينة الأحياء منهم والأموات بسبب أن امرأة أرادت أن تنجو بنفسها فادعت أنها تملك جوهرة ثمينة بلعتها آملة أن يأخذوها أسيرة حتى تضع هذه الجوهرة ، ولكنهم شقوا بطنها وشقوا بطون كل النساء ورجال وأطفال المدينة ظانين أنهم يخفون كنوزهم داخل بطونهم ، أما المدينة الثانية من مدن الأحزان فهى « مرو » والتى خان حاكمها أهل المدينة ، وقام المغول بتقسيم سكانها ثلاثة أقسام الرجال والنساء والأطفال ثم أجبروا الرجال على الرقاد مشبكون أذرعهم وراء ظهورهم ، ووزعوهم فى شكل حصص على جنودهم حيث قام كل جندى بذبح حصته ، وابقوا على تجار المدينة وكان عددهم ستمائة ، ثم بدءوا تعذيبهم

بأبشع ألوان التعذيب ، لكى يعترفوا عن أماكن كنوزهم وأموالهم المخبأة ، ولم يبقوا من هؤلاء التجار أحياء إلا على أربعة فقط لحاجة الجيش إليهم ، ومن اختبأ من السكان عاش بلا مأوى وبلا طعام أو شراب ، حيث مات جوعًا أو انتظر موته على يد الذئاب ، التى كانت تشم رائحة الغزو المغولى ثم تكمل عملهم الدنىء حيث تقضى على ما بقى من الأحياء ، وقد لحق ذلك القدر بعدة مدن على التوالى ولما تراءى لبعض السكان فى إحدى تلك المدن إنقاذ حياتهم بالرقاد بين جثث القتلى تنبه المغول لتلك الحيلة التى اكتشفوها على يد أحد الخونة ، ومن ثم صدرت الأوامر بضرورة فصل رءوس الأهالى عن أجسادها عند الغزو ، لقد استخدموا كل حيلة ماكرة وكل طريقة خادعة وكل وسيلة خبيثة لاستئصال البشر .

ومن تلك الحيل أنهم أرغموا أحد المؤذنين من أسراهم قبل أن يقتلوه أن يعتلى المئذنة وينادى للصلاة فخرج من الأهالى من كان مختبئًا ظانًا أن المغول قد فكوا الحصار ، وتركوا المدينة فما كان من الطغاة إلا أن حصدوهم عن آخرهم وبلا رحمة والضحكات الشيطانية تخرج من أفواههم وكأنهم فى حفل عرس .

أما مدينة « باميان » فقد ظلت خالية من السكان لمدة خمس سنوات بعد أن ذبح جنكيز خان كل مخلوق بشرى ضمته جدران المدينة ، وأمر بهدم قصورها ومساجدها ومنازلها وقلع زرعها ،

وكان ذلك لأن المدينة قاومت سكان الحصار وجاء سهم إلى أحد أحفاد جنكيز خان الذى كان يحاصر المدينة فأرداه قتيلاً .

وبعد أن أباد جنكيز خان معظم سكان مدينة « هراة » سأل إمامها قائلاً :

« هل يبقى اسمى خالدًا بعد موتى » قال هذا الإمام « يبقى اسم الإنسان ما بقى هناك سكان » .

ولكن إحقاقًا للتاريخ نقول إن سلطان خوارزم لم يقف مكتوف الأيدى – رغم أنه كان السبب الرئيسى فى انحلال دولته – بل قاوم ولكنه لم يستطع فحمل راية الكفاح ولده جلال الدين ولقد أعجب جنكيز خان بشجاعة جلال الدين قائلاً عنه : « سعيد من يلد مثل هذا الابن » .

ولقد اعتاد المغول قبل مغادرتهم أى مدينة إسلامية أن يحرقوا ما تبقى من غلال فيها أو محصولات أخرى حتى يطمئنوا إلى أن من غابت عن رقبته سيوفهم مات جوعًا ، وفى خوارزم وهى آخر مدن الأحزان الإسلامية التى شاء قدرها أن تقع فى يد المغول حاصروها ستة أشهر ، وقد تكبد المغول خلال ذلك الحصار خسائر جسيمة ومن ثم قاموا بعمل بشع حيث فتحوا السد الذى كان يحجز مياه نهر جيحون عن المدينة فسرت المياه لتغرق البلدة ، وتهدمت أبنيتها على من فيها وبقى موضعها ماء ولم يسلم أحد

من أهلها وهكذا تحول مجرى النهر عن طريقه الطبيعى مما حير الجغرافيين مدة طويلة .

لقد كانت حروب المغول الوثنيين ضد المسلمين مذابح بشرية يحركها إنسان معقد نفسيًا وتحكم عقليته المريضة رواسب من الأحقاد والكراهية لكل لبشر ، وكان من تبقى على الحياة بعد تلك المجازر يعيش محطم الروح يختبىء خوفًا من عودتهم وبلغ بالناس الذعر حدًا جعلهم يخشون مغادرة هذه المخابىء حتى تصل الذئاب لتنهش جثث القتلى .

لم تكن الرحمة ديدنه وطالما حذر قواده أن تعرف قلوبهم الرأفة مع خصومه سبيلاً مؤكدًا إن الطغيان والبطش وحدهما كفيلان بإخضاع أعدائه وإذلالهم وموضحًا لهم أن العدو المهزوم لن يرضى بالخضوع المطلق إلا فى ظل الخوف ، ولكنه نسى أن من السهل أن يغزو الإنسان بحد السيف ولكن لن يمكنه الحكم إلى الأبد بنفس الطريقة ..

ولكن هل توقف المغول عن غزواتهم بعد سقوط إمبراطورية خوارزم الإسلامية .. كلاً بل لقد استمرت الفتوحات فى ميادين أخرى للحصول على غنائم جديدة وكانت الروسيا هى أهم هذه الميادين .

لقد اشتهر جنكيز خان بأنه أحد الفاتحين القلائل الذين نجحوا فى غزو روسيا ولعله بهذا التفوق على زميليه فى الطغيان نابليون وهتلر

اللذان فشلا فى تحقيق ذلك الحلم ، لقد اندفع جنكيز خان نحو بحر قزوين ، ثم جوبا ، حتى لا هور وانطلقت جحافله نحو الروسيا ، ولما تصدت له قوة روسية آتية من « كييف » أبادها جنكيز خان نهائيا بل لقد أسر غردندوق « كييف » نفسه ، وهكذا ظهر المغول على الشواطىء الشمالية للبحر الأسود ، وذعرت القسطنطينية ، ولما حاولت روسيا جمع جيشها من جديد بلغ تعداده حوالى ٨٢ ألف مقاتل لم يستغرق إبادته من الخان أكثر من أيام فقط بعدها دانت كل روسيا تقريبًا لجنكيز خان ، بل لقد واصل المغول فيما بعد زحفهم حيث استولوا على بولندا ونهبوها وأيضًا المجر ..

وفى آخر غزوات جنكيز خان .. قتل فى معركة واحدة فى منطقة الصين الغربية نحو ثلثمائة ألف رجل .

المؤرخون . . وجنكيز خان :

من البداية نحن لا نتفق مع وجهة نظر بعض المؤرخين العسكريين إلا فى بعض النقاط التى منها :

١ – أن جنكيز خان استخدم الكثير من التجار والمترجمين فى أعمال الجاسوسية وأنه أول من أنشأ فرق العاصفة فى التاريخ والتى أهم وظيفة لها الضربة المفاجئة للعدو ولقد عرفوا عن أعدائهم أكثر مما عرف عنهم أعداؤهم .

٢ – أن انتصارات المغول تعود إلى أنهم تعلموا من أخطائهم وإلى أنهم تعلموا وتربوا فى عالم التجربة اللا محدود وحصلوا على زاد من المعرفة العملية التجريبية .

٣ – أنهم توارثوا حكمة قذف أولادهم إلى سفينة الحياة .

٤ – أن جنكيز خان استعان بمجموعة من المستشارين العسكريين أفادوه تمامًا ورسموا له الكثير من الخطط العسكرية .

ونحن لا ننكر أن أعمال جنكيز خان من حيث الإدارة والحكم والقيادة لازالت سرًّا لم يمط اللثام عنه حتى الآن ولغزًا يحتاج إلى كثير من الدروس والبحث والفكر العميق ولكن لم نستطع بأى حال من الأحوال أن ننكر عليه شدة حراسه وحدة ذكائه ولكن أيضًا فلنسمع ونقرأ ما يقوله عنه الجنرال الأمريكى « دوجلاس مكارثر » الذى اشتهر باسم قاهر اليابان فى الحرب العالمية الثانية .. قال : « ولو محيت جميع أخبار الحروب من صفحات التاريخ ما عدا أخبار جنكيز خان لبقى لرجال الحروب معين لا ينضب من أنفس المعلومات عن تعبئة الجيوش وتنظيمها ، ومهما تغيرت أسلحة القتال فلابد من الرجوع إلى الماضى ومطالعة كتب التاريخ ليحذق الجندى فنون الحرب ومبادئها الأساسية التى لا تتغير ولن تجدها ممثلة فى غير مسيرة إمبراطور المغول منذ سبعمائة عام .

رأى صينى :

ويرى الكاتب الصينى « ف . يان » حامل جائزة ستالين للسلم » أن من الخطأ الشائع أن يقال إن جيش المغول كان جيشًا من الهمج يهاجم كما تهاجم قطعان الذئاب بلا نظام ، والحق أن جيشهم كان منظمًا تنظيمًا دقيقًا يفوق غيره من الجيوش وكان لتخاذل أعدائهم وانحلال الملوك من حولهم والغرور وجو الملق والضعف الذى انقسموا فيه والفساد والترف سببًا مساعدًا على انتصار جنكيز خان .

ونحن وإن كنا نتحفظ على الجزء الأول من كلام الكاتب الصينى إلا إننا نتفق معه تمامًا فى الجزء الثانى من عباراته ، والذى لا شك فيه أن جنكيز خان نجح فى استقطاب قادة جيشه ، أخلصوا له ونفذوا أوامره ، نذكر منهم سابوتى الحكيم الذى قال عنه المؤرخ الحربى ليدل هارت إنه أعظم القادة العسكريين فى التاريخ كله وسماه المعصوم من الخطأ وتكلم فى كتبه عن معاركه الظافرة فى إيران ، وجورجيا ، والقوقاز وجنوب روسيا ، وبلغاريا وكان ضمن قواد جنكيز خان « موهولى » المحنك « وشبيه نوبون » النارى المدفع وبرشو الأمين ، ولكل منهم فى ساحات القتال سجل رهيب من الإرهاب والقسوة وسفك الدماء .

ولا يفوتنى هنا أن أذكر أنه تظهر فى حياة كل طاغية شخصية معاونة تدفعه إما إلى مزيد من السلبيات ، أو تحاول

أن توقفه عند حدود لا يتعداها فى طغيانه أو أن تهيىء له القيام ببعض الإيجابيات ، ولقد كانت شخصية « بليو تشوتزاى » هى اللمحة الإيجابية فى حياة جنكيز خان ، وهو سياسى محنك كان فى خدمة إمبراطور الصين ووضع نفسه فى خدمة جنكيز خان ، وقد استطاع هذا السياسى أن يروض نسبيًا من شراسة المغول وقيل إنه أنقذ من التدمير مدنًا لا تحصى ومنتجات قيمة لا حصر لها ، ودأب على جمع السجلات والمخطوطات والنقوش إلى درجة جعلت بعض المؤرخين يطلقون عليه أعظم أبطال السياسة فى التاريخ ، ولقد كان « بليو » عبقرية جريئة إلى جانب عبقرية سياسية ، ويعزى إليه الفضل فيما استمتعت به الأداة الحربية المغولية من قدرات خاصة .

نهاية الطاغية :

فى عام ١٢٢٧م توفى جنكيز خان عن ٧٢ عامًا بعد أن امتدت إمبراطوريته من المحيط الهادئ إلى نهر الدنيبر على أنها شأن كل الإمبراطوريات التى أسسها الرحالة الرعاة كانت قبل كل شىء إمبراطورية عسكرية وكانت هيكلاً وإطارًا أكثر منها نظام حكم وكانت تتمركز حول شخصية العاهل أكثر من أى شىء آخر وكانت علاقتها بجموع الشعوب التى حكمتها علاقة ضرائب تجبى فقط .

لا ننكر أنه كان بسيطًا فى حياته ولم يكن يميزه عن رجاله سوى قرط ثقيل من الذهب ، يتدلى من أذنه وحصانه الأبيض ورايته البيضاء ، التى جعلها عنوانا لسطوته وسلطانه وعليها ذيول تسعة وعول ، ولم يعرف عنه الإسراف فى طعام أو ملاذ وقد أثر عنه قوله : « إياك .. إياك .. وشرب الخمر أكثر من ثلاث مرات فإن استطعت فمرتين أو مرة ، ويحسن إذا لم تذق الخمر على الإطلاق » ، وإذا كان لجنكيز نسبة فضائل فإنها لا تتعدى ٢٠٪ من تكوين شخصيته ، والبقية كانت كلها قيما مرفوضة من عدالة السماء ومن قوانين الرحمة ، لقد كان عنصريا حيث قال : « إن غاية ما أتمناه هو رفع شعبنا إلى مرتبة السيادة على العالم » وقال عن نفسه « فلينحب العالم لكى يسعد جنكيز خان » « ... » يحيا السيف ... تحيا الحرب ويكفى أن نقول إنه كان معقدًا نفسيًا مليئًا بالكراهية وحب سفك الدما .. وأثناء مرضه الذى أدى به إلى الموت أمر بتدبير مؤامرة لقتل ألد أعدائه عندما كان فى زيارته ولم يحترم وعود الصلح ولا كلمة الشرف لتوفير الأمان له ، وهكذا من طباع الطغاة وصفاتهم الغدر والأنانية .

مات وهو يحس بالوحدة والألم والحزن على ولده البكر الذى توفى فى برارى روسيا ، ويكاد الرحالة الإيطالى ماركو بولو وحده دون جمهرة الكتاب الذين أرخوا لجنكيز خان هو الذى ينفرد

بالقول إن الخان قد مات متأثرًا بجراحه عقب إصابته بسهم فى ركبته أثناء حصاره لإحدى القلاع فى إقليم « سونج » الصينى ولكن معظمهم يجمعون على إن موته جاء إثر مرض أضطره للاعتكاف فى خيمته وذلك حزنًا على أن ابنه مات قتيلاً بيد أخ جنكيز خان أى أن العم قتل ابن الأخ ، مات جنكيز خان واستغرقت عملية دفنه نحو مائة يوم فى جبل « الطاى » وقتلوا كل من صادفوه من إنسان أو حيوان وهم فى الطريق إلى دفنه من منطلق عقيدتهم التى تقول إن كل من يقتلونه يصير خادمًا للراحل فى الحياة الأخرى ، ويقال إن قبيلة بأكملها قد عفيت من الخدمة العسكرية أنيط بها مهمة العناية بالمقبرة وأن البخور ظل يحترق بلا انقطاع .

لقد عاش جنكيز خان حياة مليئة بالدسائس والقلق والتآمر ، لم يصادق أحدًا ولم يثق فى أحد ودفع ثمن جزء صغير من آثامه وأخطائه وخطاياه ، ولكن مما لا شك فيه أن الشياطين كلها حزنت وأعلنت الحداد على فراقه ، ولكن أيضًا فإن البشرية قد ارتاحت منه وستظل لعنة التاريخ تلحقه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا .